يافا مدينة تختصر وطناً

جواد عمر*

حوار مع إسكندر قبطي:
فيلم "عجمي" وكاميرا الصراع

يعترف مخرج فيلم "عجمي" (٢٠٠٩) إسكندر قبطي، أنه يتقن إيصال الفكرة من خلال السينما بشكل أفضل من الحديث عنها، ويرى أن وراء ما ينجزه فنياً تقف "فلسفة" هي أساساً مقولة العمل. فالشاب الذي ولد لعائلة فلسطينية في سنة ١٩٧٥، هو أصلاً ابن مرحلة من الصراع، وعاصر حقبة زمنية تملؤها التفاصيل المثيرة في ذلك الحيّ اليافاوي الذي صار مركزياً بعد سنة ١٩٤٨، حين لجأت أغلبية سكان المدينة إلى ما بعد بحرها.

اختار قبطي أن يجعل من الواقع سيناريو حقّق نجاحاً باهراً، لكنه، في الوقت نفسه، أثار كثيراً من الجدل السياسي. فالفيلم الذي أخرجه قبطي بمشاركة مخرج إسرائيلي (يارون شاني)، عكس إلى حد كبير واقع حيّ العجمي المحاذي للشاطىء بما يحمله من صراعات سياسية واجتماعية. وحاز الفيلم نسبة مشاهدة عالية وصلت به إلى أن يكون أحد الأفلام المرشحة عن فئة "أفضل فيلم أجنبي" في أوسكار سنة ٢٠١٠. لكن هناك مَن رأى في "عجمي" صورة منقوصة عن الواقع الفلسطيني في يافا كونه لا يعرض حقيقة الظلم الذي يعيشه الفلسطينيون تحت وطأة السياسة الإسرائيلية والتمييز التاريخي بشكل وافٍ، وهناك من سكان الحي مَن تمنى "صورة أجمل" لحيّهم، وهؤلاء يقولون: "عجمي ليس مرتعاً للإجرام، عجمي حيّ جميل وحياته جميلة."

ممثلو الفيلم أناس حقيقيون أتى بهم قبطي من أبناء الحي لا من خشبات المسرح أو الشاشات، وقد دخل هؤلاء ورشات تحضيرية، وخاضوا تجربة التمثيل في الفيلم لأول مرة. الفيلم مبني على قصص حقيقية، ويجمع أكثر من قصة، تبدأ بـ "تصفية حسابات" وتنتهي بصراع الشرطة والأهالي، وهي قصص تتشابك فيما بينها وصولاً إلى نهاية درامية غير

* صحافي فلسطيني.

متوقعة تحل لغزاً كان المشاهد يعتقد أنه حلّه مسبقاً. وفي خضم هذا الجدل، بين قصة الفيلم ومَن أحبوه ومَن انتقدوه، يرى قبطي، الذي قال أنه لا يمثل إسرائيل في الأوسكار لأنها لا تمثله، أن للفيلم فلسفة يلخصها بقوله إن الحقيقة وجهة نظر.

تعلّم قبطي في مدرسة مسيحية "لا تتدخل في السياسة"، وعاش "إلى جانب البحر"، وأشار إلى لحظة اكتشافه أنه يعيش في منطقة صراع، وكيف بدأت ملامح قصة المدينة تتضح أمام عينية كشابّ وُلد في أحد الأحياء التي تجمع بين مبانيها قصة هذا الصراع.

في نهاية المطاف لا يمكن النظر إلى فيلم "عجمي" على أنه فيلم سينمائي فحسب، بل إن لـ "عجمي"، كما لكل شيء في هذه المدينة، قصة أكبر من السيناريو، تختبئ ربما في التاريخ، وقد بدأت في سنة ١٩٤٨، وصولاً إلى اليوم. ولا يمكن الحديث عن فيلم "عجمي" من دون الخوض في التفصيلات السياسية، والتاريخية أيضاً، فالفيلم لم يولد من فنتازيا كاتب، وإنما من واقع صعب ومُلهِم.

■ **قبل الخوض في تفاصيل الفيلم وسياسته، دعنا ننظر إلى الوراء بعين الذاكرة. ما شكل الطفولة والشباب في حي مثل "عجمي"؟**

□ كانت الطفولة جميلة، كانت يافا مهدومة في الثمانينيات، وكانت بلدية تل أبيب معنية بهدم القديم وجلب سكان جدد إلى الحي، تماماً كما يحدث اليوم، بهدف تهويد المكان. كنا نلعب بين الخرابات والبيوت المهجورة. كانت الطفولة جميلة والجميع يعرف الجميع، أنت تكبر وكل شيء من حولك يكبر معك. جميع أطفال العجمي في البحر. درستُ في مدرسة خاصة أوروبية، وهؤلاء كانوا يعتقدون أن العرب لا ثقافة لديهم، وأنهم هم مَن يصنع الثقافة ويصدّرها إليهم. ومدارس الرهبان لا تتدخل في السياسة، فقد كان علينا أن نرتدي قميصاً أزرق وبنطلوناً كحلياً في اليوم الذي يُسمى "استقلال" إسرائيل، وأن نغني أغاني عبرية. تخيل أي انفصام كان يعيشه الطفل في تلك الأيام. جئت من عائلة لم تتقبّل هذه الأمور، لكنني كنت طفلاً عمره أقل من عشرة أعوام ويريد أن يكون مثل الباقين، لكن أهلي لا يوافقون، وأنا لا أفهم أهلي ولا أفهم الحقيقة أصلاً وماذا يعني أننا فلسطينيون، كل ما يهمني أن أكون مثل أبناء صفي. في البداية ينتابك شعور بأنك مختلف، لكنك تفهم في الوقت نفسه أن عليك الحفاظ على هذا الاختلاف، حتى لو على حساب مشكلات المدرسة. أذكر أنه طُلب مني أن أكتب موضوع إنشاء بالعبرية، فكتبت قصة جدي وكيف سُجن، وكيف سلبوا منه ثلاثة بيوت، وكيف أُجبر على شراء واحد منها كي يتزوج، فوضعت لي المعلمة علامة صفر.

عندما تكبر أنت ومَن معك تعي جيداً في أي اتجاه ستمضي. كلنا كنا متساوين ونحن صغار، كلنا أولاد الحارة، لكن في جيل البلوغ افترقنا، هناك مَن سُجن، وهناك مَن أُطلق عليه النار وقُتل. هكذا تبدأ الحياة، فتفهم أن هناك ما هو أقوى منك ويقرر مصيرك.

■ **ماذا يعني أن هناك أموراً أقوى منّا؟**

□ هناك أسباب تاريخية سياسية، فيافا كانت من أعرق المدن الفلسطينية، وحولها ٢٣ قرية عربية، لكن بقي من سكانها

٣٨٠٠ شخص فقط وضعوهم في حي العجمي قرب البحر وسيّجوا المكان حولهم. جدي كان يملك منجرة على مقربة من دوار الساعة (مركز يافا)، وكان عليه أن يستصدر تصريحاً في كل يوم كي يذهب إلى مكان عمله الذي يبعد عن بيته مئات الأمتار. هكذا تولد المشاكل. حين تسجن أناساً مصدومين في مكان واحد فهذه وصفة جديّة للمشاكل. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد صارت يافا نقطة جغرافية مهمة في تل أبيب التي هي قلب دولة إسرائيل، ونحن ٤٪ من سكان يافا ـ تل أبيب، وبدأ القمع: ممنوع البناء والترميم، حالات المدارس سيئة للغاية، فضلاً عن التمييز في كل المجالات.

لا أريد أن ألقي أسباب كل شيء على الآخرين، هناك إهمال يخصنا، ونحن مسؤولون عنه. نحاول دائماً أن نخبّئ غسيلنا الوسخ، ونعيش كأن كل شيء على ما يرام، لكن عندما يكون الإنسان واقعاً تحت القمع، يشعر بأنه وحده، وأن لا أحد يمد له يد العون، فأنت تهتم فقط بمَن حولك ولا يهمك غيرك. في حالات معينة تشاهد أحد السكان يرمي الزبالة من شباك بيته، فهو لا يهمه سوى نظافة بيته. رأيت ذات يوم أحد الشبان يحطم زجاج محطة الباص، سألته: "لماذا؟" قال: هذه ليست لنا، هذه لهم. هذا هو الإحساس. في يافا، عندما تقوم البلدية أحياناً بترميم الحدائق والشوارع ينتابك خوف بدلاً من السعادة، تخاف أن يجلبوا اليهود إلى المكان. في يافا جلبوا مستوطنين بعضهم ترك غزة، وبنوا لهم كنيساً ومركزاً دعموه بالملايين، وهم يطوفون يوم الجمعة حاملين أعلاماً إسرائيلية تحت حراسة الشرطة. هؤلاء احتلوا جنوبي العجمي، بينما احتل اليهود الأغنياء شماليّه.

■ كيف بدأ وعيك بأنك تعيش شخصياً في منطقة صراع، أو دراما كما وصفتها أنت؟

□ كان عمري ثمانية أعوام تقريباً وكان جدي يأخذنا أنا وشقيقي أيام الأحد إلى الصلاة معه في الكنيسة. في إحدى المرات شاهدت جدّي يتحدث مع الخوري، ولفت نظري أنه كان يتحدث إليه ويبكي، بينما كان الخوري يحتضنه برفق. لم أفهم الموضوع، وصرت أنا أبكي أيضاً من دون معرفة السبب. سألت جدي عن سبب البكاء، فقال لي: "الخوري وجد أختي." لم أفهم أين كانت أخت جدي، وفهمت بعدها أنها لجأت إلى مكان يدعى لبنان، وأن الخوري وجدها بعد عقود، وعرف جدي أين تسكن. كانت قد توفيت لكن أبناءها في قيد الحياة. جدي لم يكن يعرف عنها أو عن عائلتها شيئاً. فهمت فيما بعد أن هناك قضية اللاجئين، وفي تلك الفترة فهمت أن شيئاً ليس على ما يرام يحدث في هذا المكان. رويداً رويداً، بدأت أسأل ماذا حدث؟ صارت والدتي تحكي لي عن ماضي عائلتها، وكيف كانت العائلة تمتلك أراضي في يافا تُدعى "أرض الراهب" التي تحولت إلى مستعمرة "متسليح"، وكيف سجنوا جدي في الرملة. بدأت أفهم منذ ذلك الحين أنني أعيش في مكان يميّزه الصراع.

■ ما الذي جعل الصراع هذا "وصفة للكاميرا"؟

□ في يافا قصص عظيمة، قصص تحمل بين طيّاتها دراما، فهي قصص

ناتجة من قلب الصراع، فالقصة المثيرة تحمل الدراما عادة، والدراما مولودة من رحم الصراع، وعادة ما يكون للصراع طرفان على الأقل، لكل منهما وجهة نظر، ويافا وصفة لهذا، لأن فيها كثيراً من التناقضات والصراعات: الغني والفقير؛ المتعلم والأمّي؛ اليهودي والعربي؛ وعندما تتداخل هذه التفصيلات يولد الصراع. القصص في فيلم "عجمي" حقيقية، طوّرناها وكان علينا أن نحبكها كي تتلاءم مع الفلسفة البسيطة التي أردنا أن نخلقها. حاولنا إثبات أن كل شيء هو وجهة نظر، لا توجد حقيقة واحدة، فالحقيقة عبارة عن وجهة نظر، وكل طرف يرى الصراع من مكان مختلف، وهذا يسبب صراعاً وعنفاً.

■ دعنا نركز أكثر على ما أردت قوله في "عجمي".

□ في الحقيقة بدأت الفكرة مع زميلي يارون (المخرج المشارك)، فقد عرض عليّ أن نكتب معاً، وجاء عرضه هذا بعدما أخرجت فيلماً قصيراً عُرض في أحد المهرجانات التي أدارها. في البداية قال لي ليس لديّ قصة، لكن هناك بنية لفكرة ما، وهي قصص تحدث بالتزامن، وتدل على عدد من وجهات النظر إلى واقع واحد. الفيلم القصير الذي تعرفت من خلاله إلى يارون كان اسمه "الحقيقة". ومن خلال ذلك الفيلم، اقتربت من مفهوم ما نطلق عليه "وجهة النظر"، وما العلاقة بين وجهة النظر والحقيقة، وما هي الحقيقة الخالصة. في "عجمي" كان مهماً جداً القول إن لا وجود للأبيض والأسود في الحياة، وهذا يسري أيضاً على الصراع الفلسطيني ـ اليهودي، فاليهودي مؤمن بأن هذه الأرض التي يعيش عليها من حقه ١٠٠٪، ونحن، الفلسطينيين، مؤمنون بكل قلوبنا وروحنا بأن هذه الأرض لنا ومن حقنا، وهذا ما يخلق الصراع، وهنا ينقسم العالم إلى أبيض وأسود. هذا ما أردت أن أريه للمشاهد، أن أخدع المشاهد، وأجعله يصدق شيئاً معيناً من وجهة نظر شخصية معينة، وبعدها، أجعله يصدق شيئاً آخر عكس الحقيقة التي شاهدها من قبل. هذا صعب جداً، فمن أجل أن تصدّق شخصية عليك أن تحبها، ولذا كان علينا أن نحكي القصة من دون وجهة نظر، وفي كل مرة نخلق بطلاً جديداً.

جزء كبير من مشكلة "عجمي" نابعة من هذا المكان، ومن الصراع الذي يخلقه اختلاف وجهات النظر. كل صراع يولد لأن هناك أبيض وأسود، وكل صراع يتم حلّه عندما تكون واعياً أن هناك وجهة نظر أُخرى ترى الأمور عكس ما تراه أنت. فإذا تقبّلت أن هناك مَن يختلف معك، فإن هذه تكون بداية الطريق لحل الإشكاليات. لا أتحدث عن مشاكل العرب واليهود فقط، ففي النهاية علينا أن نفتح عيون الناس. ٥٠٪ من الحل هو تعريف المشكلة. نحن نخبّىء المشكلة ونلوم غيرنا، وكان مهماً ألاّ ألوم أحداً. لا يوجد ضحايا، كلهم ضحايا، وكلهم ليسوا ضحايا.

■ قد يكون التوجه في مثل هذه الحالة وسطياً، فأنت تعيش في يافا وتعرف أن الأمور ليست بالضبط كما جاء في الفيلم. هناك مَن انتقد الفيلم وقال إن الصورة تختلف، وإن الشرطة مثلاً تتعامل مع أهالي يافا على أنهم أعداء.

□ عندما تدعوني إلى العشاء، وتقول لي أنك دعوتني إلى أكل اللحمة المشوية، فأسألك: "أين السمك؟" تبدأ المشكلة. أنا صنعت فيلماً، لكن لا أعتقد أن لديّ جواباً عن هذا السؤال. أنا طبخت طبخة معينة فيها لحمة، وأنت تسألني عن السمك. لا أعرف أين السمك. أعتقد أن هذا سؤال جاء من مكاننا، فقد تربينا على أننا الضحية، كأننا تعلمنا هذا الأمر من اليهود، وخصوصاً أنهم كونهم ضحايا استغلوا وكسبوا، ونحن اعتقدنا أن هذه هي الطريقة الصحيحة. لامني الكثيرون، وقالوا: "أنت لم تُظهر الاحتلال، ولم تُظهر النكبة." أنا أردت أن أقول فكرة، لا تستطيع في ساعتين أن تقول كل شيء.

■ **هل أردت إثبات شيء، من خلال مقولة الطفل الذي يروي الفيلم؟**

□ يحمل الطفل وجهة نظر تختلف عن معظم الشخصيات. فالشخصيات الباقية كلها تجد في نهاية المطاف أن العنف هو الحل. نصري (الطفل) هو عكس "الرجال" حوله. كلهم رجوليون، كلهم أقوياء، وهو يخاف، ويمشي ضد هذا التيار. وهو يجلب لك الأمل، لكنه يُقتل في النهاية. لقد تأقلم مع كل شيء حوله من خلال الفن، لكن الواقع دفنه وشوّهه.

■ **الفيلم وصل إلى الأوسكار، كيف تقيّم وصوله الآن بعد عامين؟**

□ عندما أصنع فيلماً لا أفكر بجائزة، لا بأوسكار ولا بغيره. كان لديّ قصة لأرويها ورويتها، لكن عندما جاءت قصة الأوسكار خفت منها فعلاً، خفت من أن أصبح جزءاً من صناعة الأفلام هذه التي تدور حول المال والشهرة والأمور التافهة. لكن في الوقت نفسه، كنت سعيداً لأن الفيلم سيُعرض لجماهير أوسع. من ناحية التسويق ساعد الأوسكار الفيلم كثيراً، في بغداد وشاتيلا وكل مكان في العالم العربي.

■ **وقلت أنك لا تمثل إسرائيل، لماذا انتظرت كثيراً لتقولها؟**

□ قلتها أكثر من مرة قبل الأوسكار، قلتها للجزيرة الإنجليزية، لكن أحداً لم ينتبه. منذ أن ترشحنا للأوسكار فكرت أن هناك إشكالية كبرى. قلت لنفسي في نهاية المطاف عندما سأذهب إلى الأوسكار سيكتبون حتماً تحت فيلم "عجمي" أنه من إنتاج إسرائيل، ففئة الأفلام الأجنبية تُقسم بحسب الدول. من ناحية الشعور لا أقبل القول أني إسرائيلي، أو أني أمثّل دولة إسرائيل. قررت أن أقف أمام كاميرا إسرائيلية كي أقول أني لا أمثل إسرائيل، لا أمثل دولة لا تمثلني.

* * *

"عجمي" فيلم مميز، فقد كسر الصورة النمطية عن يافا. لم يصورها مكاناً رومانسياً، لكنه بالتأكيد جسّد واقع المكان الحالي في صعوباته من دون الخوض في التاريخ، وكان قبطي سبّاقاً في هذا.

لا يحكي "عجمي" قصة يافا فحسب، بل يجسّد حال الفلسطينيين في الداخل أيضاً، ويعكس واقعاً خلافياً. الفيلم يسبر أغوار المأساة التي تنتج الفوضى في يافا، وثمة تفاصيل صغيرة تلفّها نقاشات كبيرة، وهو يخوض غمار الثأر والجريمة والسياسة وصراع الفلسطيني مع ذاته والآخر، وهذا كله ضمن قالب

درامي ـ على الرغم من ثقله ـ يعرض صورة مستحدثة عن واقع قديم. فالمجريات كلها تحدث الآن لا في سنة ١٩٤٨، والصورة المأساوية تختلف، لآنيتها، عمّا جاء في كتب التاريخ. "عجمي" يحاكي مرحلة تعيشها المدينة امتداداً لما عاشته في الماضي، وهو واقع يبدو مختلفاً، لكنه مكمّل لما كان.

إلاّ إن صورة يافا لم تكتمل. فقد تجلى صراع الشخصيات أكثر من الصراعات على الواقع. ففي ذلك المكان يعيش العرب حالة من التمييز الواضح، وأغلبيتهم ضحايا لواقع سياسي صعب. قبطي الذي أراد أن يأتي بالقصة من وجهات نظر مختلفة، تجنّب خوض حقائق لا يمكن اعتبارها وجهات نظر، وإنما هي صراع بين القوي والضعيف (علاقة الشرطة بأهل المدينة)، وبين الأقوياء أنفسهم، والضعفاء أنفسهم. صورة مركبة استطاع "عجمي" أن يعكس جزءاً منها، لا كلها، علماً بأن قبطي يتحدث عنها بشكل أوضح من خلال حوارنا معه، وهو واعٍ لها بشكل واضح، أكثر ممّا بدا في الفيلم.

"عجمي" هو فيلم سينمائي ممتاز فنياً، لكن هذا لا يمنع أن هناك أسئلة كثيرة تدور في أفقه. سألنا الكاتب ماذا كان سيغيّر في الفيلم لو أنه يخرجه اليوم، فردّ بقوله: "لم أفكر بالسؤال من قبل"، مضيفاً أن الفيلم صدر، وأنه إذا كان سيغيّر، فإنه حتماً سيغير في أفلام مقبلة، وهو يعمل على سيناريو آخر لم يفصح عن تفاصيله. ■